من سير الخالدين

نابليون .. وجنوده .. وقواده .. !

للأستاذ عبد القادر حميده

شرع الكتاب فى هذه الأيام أقلامهم .. بعد أن غمسوها فى مراجع التاريخ .. ينقلون عن صفحاته وسطوره سيرا ملوثة للوك غابرين .. فيعددون مساوئ هذا .. ويرددون هفوات ذاك .. وعلى الجملة فهم يقدمون إلى القراء حياة تضج بالشهوة .. وتزخر بالفسق .. وتحفل بالفجور ..!! حياة لا تهدف إلا للمتعة .. ولا تنشد إلا العبث .. وفى اعتقادى أن مثل هذه النقائص المنتقاة من كتب التاريخ .. التى تعرض اليوم على الأعين .. وتلقى على الآذان .. لا تحط إطلاقا من قيمة الملك السابق .. ولا تعيب منه مرمى .. لأنه سيشعر — على الأقل — بأنه لم يقترف هذا الجرم وحده .. بل سبقه ملوك سالفون .. لم يبلغوا ما بلغه من الترف والأبهة .. وتلك لعمرى مؤهلات المربدة ..!! كان الأحرى بالكتاب ... أن يتخذوا من صفحات الجرائد لوحات يسيطرون عليها أمثلة من .. الشرف .. والعفة .. والكرامة .. والنزاهة .. وكراهية الذات .. والحنو على الشعب ..!! لأناس دستورهم هذا ، ولدينا كتب التاريخ حافلة ، وبهذا يدرك الملك السابق كما يطمئن جمهرة الناس إلى أنه طرق باب النزوات وحده ، وسلك دروب الشيطان بمفرده ، وانساق أمام تيار جارف من النشوة الزائلة ، لا تخوطه إلا حاشية لم تكن تريد إلا تحقيق أطماعهم الشخصية .. ولو على حساب تلويث صفحة تاريخية .. !

وحين يدرك فاروق أنه وحده نشز عن طبيعة الخلق — بعد أن يدرك القراء أيضا — سيتضاعف شعوره بالألم — إن كان لديه بقية من ضمير — ويحس بالوخز أشد إيلاما ، وأحد نصلا ! وإنى إذ أقدم اليوم إلى قراء الرسالة جانبا من حياة نابليون إنما آمل أن ينهج إخواننا الأدباء هذا النهج ، ويسيروا على ذلك الدرب :

... كان نابليون شديد الانتباه إلى أصاغر جنوده لاعتقاده أن الجندى الصغير قد يكون ذا قلب كبير ، وأن حسن المعاملة مدعاة لزيادة الإخلاص ، قال دوق فيسالس « إن تلك الشوارب القديمة (يعنى رجال الحرس) لم يكونوا يجسرون على مخاطبة أصغر ملازم فى الجيش بمثل ما كانوا يخاطبون ذلك القائد الأكبر الذى كانت هيبته تملأ نفس الجيش كله » ، وقال دون باسانو : « إنى رأيت الإمبراطور مئة مرة ينتقل ليلا من معسكر إلى آخر ، ويقف هنا وهناك لدى النيران ويسأل عما يغلى فى القدر ثم يتهقه من الأجوبة المضحكة التى كان يسمعها من الجنود » ، وقال القومندان كلود بزجيه فى تاريخه « يالله ، ما أعرف نابليون بالجندى الفرنسى ، وما أقدره فى مخاطبته والضرب على أشد الأوتار تأثرا فى قلبه أعنى وتر الشرف » ولقد وصف نابليون نفسه الجندى الفرنسى فى صفحة جميلة قال فيها : « إن الجندى الفرنسى رجل مفكر قاس الحكم فيما يتعلق بشجاعة ضباطه ومواهب رؤسائه ، وهو يجادل رفيقه فى شأن الخطط والأساليب الحربية ، ويستطيع القيام بأى عمل من الأعمال إذا كان لرؤسائه حرمة فى نفسه وإذا كان هو يستحسن مجرى الأحوال الحربية ، أما إذا كان الأمر على العكس فلا يمكن الاعتماد على الفوز . وابن فرنسا هو الجندى الوحيد بين جنود أوروبا الذى يستطيع القتال ويقوم بجليل الأعمال وهو ضامر البطن مطوى الأحشاء على الطوى ، ومهما طال زمن المعركة فهو ينسى الأكل فى سبيل الفوز ، حتى إذا انتهى القتال صارت مطالبه أكثر من مطالب غيره . والجندى الصغير من الفرنسيين أشد اهتماما بإحراز النصر من ضابط روسى ، وهو يدعى أن الفضل الأكبر فى كل نصر يرجع إلى فيلقه ، وجملة القول أن جنود الأمم الأخرى تصبر يوم انوغى بحكم الواجب ، والجندى الفرنسى يحارب إجابة لصوت الشرف .. فإذا أصابه فشل شعر بأن نفسه ذليلة .. وإذا فشلت الجنود الأخرى عادت غير مكترثة »

وربما كان رأس الأمور التى حملت نابليون على تسمية الوسام الذى أحدثه « بوسام جوقة الشرف » ما كان يعرفه من رسوخ ذاك الشعور فى نفس الفرنسى ، وإذا رجعت إلى الأوامر العسكرية وخطب التحريض التى كان يلقيها عليهم أبصرته يحاول فيها كلها أو جلها أن يظهر للجندى ما يحرزه من الشرف والفخر

هو وآله إذا عاد وإكليل النصر يزين جبينه ، ولقد كان الأعداء أنفسهم يعرفون أن قوة الجندى الفرنسى إنما هى بعواطفه ومشاعره ، لا بقوة ساعديه وعرض كتفيه ، قال أحد القواد البروسيين بعد معركة يانا : « لو كان علينا أن نقاتل الفرنسيين بسواعدنا فقط لأدركنا النصر فى وقت قريب ، لأن الجندى الفرنسى صنير ضئيل يستطيع ألمانى واحد أن يتغلب على أربعة مثله ، ولكن هؤلاء الجنود الصغار ينقلبون إلى طبقة فوق طبقة البشر تحت النيران ويندفعون بنخوة لا نستطيع إيضاحها ولا نرى لها مثيلا فى جنودنا » ولا شك فى أن هذا الإقرار من ضابط بروسى كان من أجل الشهادات التى تسطر للجنود الفرنسيين

وكان نابليون لا يكتفى بإظهار الاحترام والميل إليهم من أجل تلك الفضيلة ، بل كان يحبهم حبا صادقا ، قال بعض المؤرخين : إن جنوده كانوا أولادا له بالمعنى الصحيح ، يشرف على أمورهم ويسهر عليهم كما يسهر الأب على بنيه ويحضر توزيع المأكل عليهم ويتناول الحساء معهم .! وكان نابليون يضع اللين فى محله والقسوة فى موضعها ، فيعفو عن الجندى المذنب إذا رأى وجها لعذره أو ما يخفف ذنبه ، ولا يتسامح إذا وجد التسامح مضرا بالمصلحة الحيوية ، وإليك أقصوصة تدلك على شئ من خلقه :

حدث أيام معارك بروسيا أن الجنود الفرنسيين ضربت مضاربها لتستريح بعد السهر المضنى ثلاث ليال متتالية ، ولما جاءت العتمة خرج نابليون يتفقد أحوال الحراس فى أطراف المعسكر جريا على عادته فى كثير من الأحيان ولا سيما فى الأوقات العصيبة ، فاتفق أنه رأى حارسا برح به الوصب وتسلط عليه الكرى بعد السهر الطويل فهوى إلى الأرض ، ونام ، تاركا بندقيته إلى جانبه ، فأراد نابليون أن يوقظه ولكنه أبصر فى تلك الدقيقة طوافة من الضباط قادمة نحوه فأخذ بندقية الحارس النائم ووقف مكانه حتى لا يدع الضباط يبصرون به ويعاقبونه ، ولما طلبت الطوافة سر الليل أجابها نابليون فسارت فى طريقها لإتمام التفتيش ، وفى تلك الأثناء استيقظ الحارس النائم فوجد بندقيته بيد رجل غيره فأسرع نحوه فإذا هو قائده ومولاه ، ولكن نابليون سرى عنه قائلا : لا تخف ، ثم سأله : كم مضى عليك من الزمن بلا نوم ؟ ، فقال : ثلاثة أيام ، ومع ذلك ما كنت لأنام لولا ما أصابنى من الجروح ! ثم أبصر نابليون أن الجندى كان مصابا بجرحين فأعجب به ، ومنحه وساما ، ثم قال وهو يبتعد عن ذاك البطل : « لا ريب أنى أستطيع فتح العالم بهؤلاء الرجال .. » وكان نابليون يعرف وجه الضعف فى رجاله ، فيأخذهم به ويضرب على الوتر الحساس من أوتار قلوبهم ، فمن شأنه المعروف أنه كان مع شدته فى المحافظة على النظام العسكرى يسمح لرجال الحرس القدماء الذين حضروا المعارك وأبلوا البلاء الحسن بأن يخاطبوه بصيغة المفرد بعكس ما يقضى به أدب الحديث فى اللغة الفرنسية ، ولا سيما إذا كان المخاطب كبيرا والمخاطب صغيرا ، فإن استعمال صيغة الجمع فى الكلام واجب لا يصح إغفاله ، على أن نابليون كان يعلم أن عادة أولئك الأبطال التى تدل على انتفاء الكلفة صارت إليهم من روح الجمهورية ، وأنها تنطوى على همة واحترام يسهل فى سبيلها بذل المهج الغالية

وكان نابليون قبيل عرض الجنود يدعو الكولونل ويسأله عن أسماء الذين امتازوا فى المعارك الماضية ويطلب بعض أخبار عن أهله ، ثم يمر وقت العرض بأولئك الجنود الممتازين فيذكر لكل منهم اسم المعركة التى امتاز فيها والمكافأة التى أخذها ويسأله عن أمه العجوز إن كانت حية .. أو عن غيرها من آله الأقربين .. فيطير الجندى منهم فرحا وطربا حين يرى قائده الأعظم يتذكر خدمته ويعنى بأمره ، ثم يصبح نابليون حديث النهار وسمر الليل بين الجنود كلهم .. فيأخذ كل منهم يحكى حكاية عن ذاكرته العجيبة ومعظم تلك الحكايات من بنات المخيلات !

وكان من أكبر العوامل فى تفانى الجنود أن كل واحد منهم بات يحسب نابليون منصفا للشجعان وذوى الكفاءة الحربية ، وكان كبار القواد أقوى البراهين الحية لديهم على صحة ذلك الاعتقاد ، فإنهم خرجوا من الجيش وبعضهم استوى على العروش مثل المارشال مورات الذى عين ملكا لنابلى ، وبرنادوت الذى استوى على سدة أسوج ، ومعظم الجنود كانوا يرون الرقى إلى أحد العروش رتبة عالية من الرتب التى كان نابليون يمنحها لرجاله فيقولون مثلا ، « فلان صار ملكا .. كما يقولون .. فلان رقى إلى رتبة كولونل » مع مراعاة النسبة بين الرتبتين .! وهناك أمر آخر كان نابليون يعنى به عناية خاصة وهو تمزيز ما يسمونه

«روح الفيلق» فى الجيش ، ومعناه بعبارة أخرى أن يفرغ القائد جهده فى زيادة التنافس الشريف بين فيالق جيشه .. فتتسابق فى مضمار الشجاعة والبأس ، ولقد نجح نابليون نجاحا باهرا فى هذا السبيل حتى صار كل فيلق من فيالقه بل كل آلاى من آلاياته يعد نفسه فى مقدمة الجيش .. ومما يذكر عن سمو الأساليب التى كان يتبعها نابليون لبلوغ القصد أنه كان إذا رأى النصب والجوع ينهكان تلك الجنود الفولاذية كما كانوا يلقبونها ، نزل هو وسار مع الجنود ، فأخذ كل واحد من هؤلاء يقول « الإمبراطور .. الإمبراطور » وتغيرت مشية الفيلق كله كأنما تيار كهربى سرى إليه من أوله إلى آخره .! هكذا كان نابليون وهكذا كانت جنوده . وكل فريق منهم خليق بالآخر ..

... كان نابليون ينظر إلى الجيش كما ينظر الصانع العالم إلى آلة عظيمة يقتضى تركيبها تدقيقا شديدا وفكرا سديدا ، ولذلك كان يفكر فى كل ما قل وجل من أموره حتى انتقاء الخيل وشراء المؤونة اللازمة لها كما تدلنا رسائله المدهشة ، وليس بنا حاجة إلى القول أن اختيار قواده كان له الشأن الأكبر لأنهم القطع الرئيسية التى تتركب منها تلك الآلة العظيمة ! ولم يكن فى وسع نابليون منذ مائه وثمان وستين سنة أن يختار قواده من الضباط الذين قضوا سنوات عديدة فى درس القواعد العسكرية لأن التعليم العسكرى لم يكن شيئا مذكورا فى ذاك الوقت ، والفضل فى كثير من القواعد الحربية الباقية حتى اليوم يرجع إلى نابليون نفسه ، وما كانت عظمة هذا البطل الذى لم تحط مثله أصلاب البشر قائمة ببسالته وانتصاراته فقط .. بل كانت تقوم بها وبنظاماته ومبتكراته وعبقريته العجيبة الشاملة ، وعليه فإن نابليون لم يكن لمندوحة — وتلك حالة التعليم العسكرى فى زمانه — من أخذ أولئك القواد الذين خلد التاريخ ذكرهم من صميم جيشه ، أى أفراد الشعب الذين قاتلوا فى سبيل الدفاع عن حريتهم وحرية وطنهم وصدوا دول أوروبا التى هبت لإذلالهم . وكان نابليون قوى الفراسة صادق النظر فى الرجال .. فاستطاع أن يقدر قدر كل واحد من الذين خدموا تحت إمرته ونوع الخدمة التى كان يمكنه أن يتفوق فيها . مثلا أنه رأى « مورات » فأدرك أنه خير رجل يقود كوكبات الفرسان ويقدم لها المثل الأعلى بنخوته وحميته وشجاعته ، وقرأ على جبين « ناى » أنه الرجل الذى يطير إلى الحمام فى صدر المشاة ، وما أخطأ ظنه فى أن « ناى » كان يسحر رجاله بالقدوة الحسنة وهو الذى أخذ بندقية فى معركة « واترلو » وصاح « تعالوا انظروا كيف يموت مارشال من مارشالية فرنسا .. » وهو الذى قال فيه نابليون : « ما هذا رجل إن هو إلا أسد من الأسود .. » وليس مجال كاف لنذكر ما أبداه كل قائد من القواد العظام فحسبنا أن نذكر مع «مورات» و«ناى» .. «بسيير» و « سول » و « لان » و « سوشيه » و « برتييه » و «دانو» و « جوفيون سان سير » و « أوجيرو » و « جونو » و « ماكدونالد » و « مسينا » و «لازال» و « كولنكور» .. فهؤلاء وعدة من الأبطال كانوا أسودا لا تقهر ، ولكن نابليون كان يخضعهم بنظرة وهو فى ذروة مجده الحربى !

وذكر نابليون خطة سلوكه مع قواده قال : « كنت أحر الرأس البارد .. وأبرد الرأس الحار » أو بعبارة أخرى أنه كان يكسر من حدة الحديد ويثير حماسة البليد مراعاة لمقتضى الحال ، وهى خطة بسيطة فى ذاتها ولكن تنفيذها مع قواد نابليون كان يقتضى عقلا كعقل نابليون .

وكان من مزايا الرجل أن يزن حسنات كل قائد ؛ فإذا رجحت سيئاته حاول أن يصلحه بحذق ومهارة فمن الحوادث المعدودة من هذا الطراز أنه شرع يوما فى تعنيف ضابط فى رتبة كولونل لأن جنوده أضروا بمصالح إحدى الدساكر . . فشق على الضابط أن يسمع الكلام المر من قائده وأراد أن ينفصل .. فقال نابليون همسا : « أنا صدقتك فاسكت » وفى اليوم التالى دعا نابليون الكولونل وقال له : « كن مستريح الفكر فقد كنت أعنف فى شخصك بعض الجزالية الذين كانوا بجانبك . . ولو وجهت إليهم التعنيف مباشرة لأوقفتهم فى موقف يستحقون فيه التحقير أو ماهو أبلغ منه . . » وإذا اتفق أنه جرح فى حديثه قائدا كبيراً .. حاول بعد الحديث أن يضمد جرحه . . فمن ذلك أنه انتقد انتقادا شديدا الجنرال « مارمون » على بعض الأعمال الحربية فى معركة « واجرام » فسخط « مارمون » من هذا الكلام وعاد إلى منزله كسير القلب . . شديد الكرب . . فما وصل حتى جاءه رسول إمبراطورى يحمل إليه البشرى . . بترقيته إلى رتبة . . مارشال !

ولما أخذ العدو بلدة مونترو سنة ١٨١٤ رأى نابليون أن تأخر المارشال فيكتور كان السبب فى ضياعها وأصدر إليه إذنا فى ترك الجيش.. ومفهوم من هذا الإذن أنه لم يكن له من معنى إلا سخط الإمبراطور عليه . فجاء المارشال فيكتور وعيناه مغرورقتان بالدموع فقابله نابليون وهو يتميز من الغيظ وعيره بالخطأ الذى ارتكبه واستحق من أجله الإبعاد عن الجيش . . فلم يتمالك المارشال أن رفع عقيرته وأكد إخلاصه وذكر خدماته فى إيطاليا فسكن غضب نابليون لذكر تلك الخدمات ثم صافحه قائلا : «لا بأس من أن تبقى فى الجيش يا فيكتور ولكنى لا أستطيع أن أعيد إليك فيلقك بعد أن عقدت لواءه « لجيرار » وإنما يمكننى أن أوليك قيادة فرقتين من الحرس فاذهب واستلم قيادتهما ولا تذكر بعد اليوم شيئا مما جرى . . »

ولو شئنا أن نذكر مالدينا من هذا الطراز لاستغرق مجالا واسعا وتجاوز بنا الغاية المقصودة فى هـذا المقال . . فحسبنا أن نقول — ومذكرات « مارمون » الذى خان نابليون فى أواخر عهده — خير شاهد . . أن نابليون كان فى معظم الأوقات يجرح باليمين ويضمد باليسار . . ومما قاله الخصوم فى تفسير هذا السلوك الحميد « أن مصلحته الخاصة . . وقلة الرجال الأكفاء حملتا نابليون على مداراة رجاله » وهو تفسير لا يذهب بفضل نابليون . . ولا يحط من قدر سلوكه.. بل هو يدل على حسن سياسته وأصالة رأيه، وليس بمنكر على الرجل أن يفعل الخير ويحسن الصنع لأنه يتفق مع مصلحته . . أو لأن مصلحته كانت تدفعه إليه . . فإنما الأمور بنتائجها . . وكل من يذم مثل هذا النهج يكون مثله مثل من يطعن على رجل ينقذ آخر من الغرق لأنه أراد الحصول على وسام الإنقاذ أو مكافأة أخرى . . . ! !

وإذا طالعنا المذكرات الخاصة وجدنا فيها مايدل على شدة حبه لقواده . قال « كونستان » بعد النصر الباهر الذى أحرزه نابليون فى مارنجو : « إنه مع النصر الفاصل الذى أوتيه القنصل الأكبر (أى نابليون) كنت أرى الحزن يملأ نفسه وأسمعه يردد « إن فرنسا فقدت بفقد « دسكيس » فتى من خيرة أبنائها . . وفقدت أنا صديقا من أبر الأصدقاء »

ولما استوى نابليون على العرش الإمبراطورى لم يتغير شيء من عواطفه نحو قواده ، بل لبث يسمح للمارشال « لان » بأن يخاطبه بصيغة المفرد . . ولما بلغ نابليون خبر إصابته بجرح قاتل تولاه حزن عظيم وأخذ يزوره صباحا ومساء . . واتفق أنه وصل فى عيادته الأخيرة بعد أن لفظ المارشال روحه الطيبة . . فتقدم نابليون وقبله وبكى ثم أخـذ يهمهم « ياللخسارة فرنسا . . . يالخسارتى » ولما حاول « برتييه » أن يبعده عن رؤية ذلك المنظر الأليم قاومه نابليون نحوا من ساعة

وفى اليوم التالى كتب نابليون إلى أرملته يقول : «أيتها النسيبة مات المارشال على أثر الجروح التى أصابته فى ساحة الشرف فخلف لى من الحزن مايضارع حزنك . . ولا غرو . . فإنى فقدت بفقده أفضل قائد للجيش وخير رفيق وصديق لزمنى منذ ست عشرة سنة.. إن أسرته وأولاده لهم كل حق فى طلب حمايتى ورعايتى » ثم كتب إلى الإمبراطورة « إذا أمكنك أن تساعدى فى تعزية أرملة المارشال فافعلى » ولما أصيب « ديروك » بقنبلة عند « درسد » ذهب إليه الإمبراطور نابليون وضمه إلى قلبه مرارا ثم عاد خائر القوى لفرط الأسى . . وهو يقول : « ياللهول . . أيها العزيز ديروك ماأعظم خسارتى فيك » وكانت دموعه تسيل على خديه وتسقط على ملابسه

ثم أمر الإمبراطور بشراء أرض وبإقامة تمثال لذلك القائد العظيم وبكتابة العبارة الآتية تحت التمثال « هنا رقد الجنرال ديروك دون فريول وأحد مارشالية نابليون العظام أصابته قنبلة فمات ميتة مجيدة بين ذراعى الإمبراطور » . . ولم يكتف نابليون بإكرام هذا الفقيد بل صرف عناية كبيرة إلى عائلة ديروك ومنح أرملته وابنته دوقية فريول (وكان ريعها وقتذاك لا يقل عن مائتى ألف فرنك)

على أن هذا الشعور الجميل الذى كان يبديه نابليون فى مثل تلك الظروف لم يكن يحول دون استقلال فكره وإرادته، فقد كان عند الضرورة شديدا قاسيا . . وثبت أنه كان فى إيطاليا ومصر حين كان جنرالا كبير المطامع.. أشد وأقسى فى معاملة القواد والجنود مما كان عليه بعد استوائه على السدة الإمبراطورية واستلامه مقاليد الحكم المطلق واتساع شهرته وسطوته فى العالمين . . قال خصوم نابليون أنفسهم فى مذكراتهم : « إن هذا الجنرال الصغير كان يخيف